الجزء ٦ المجلد ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : حزيران سنة ١٩٣٠ م الموافق المحرم سنة ١٣٤٩ هـ

المحاضرة الثانية عشرة

عروبية المتنبي (١)

الفتى العربي

— ٤ —

حرص العرب على قوميتهم — اختلاط العرب بالاعاجم — تشتت العرب

« تغني الشعراء بالقومية العربية »

أرأيتم كيف كان اليمانيون وهم في ارض غير ارضهم ، وتحت سماء غير سمائهم يلهجون بذكر بطونهم وأحيائهم ، وقد تقاذفت بهم وهاد وتلاع ، وشطت بهم غربة نازحة ، أرأيتم كيف كانوا يحنون الى قبيلهم وعشيرهم ، فما يسمون منازلهم في خد العذراء الا كندة والا السبيع ، أرأيتم كيف كان اهل البدو يعتصمون بالعروة الوثقى من قوميتهم وتطرب السنتهم بذكرياتهم ، وهل القومية الا الحرص على الذكريات ، هل القومية الا التغني باصحاب هذه الذكريات .

قال المؤلف الايطالي (فرورو Ferrero) أصبح احتفال الامم بعد تعاقب مائة عام

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على وفاة الفضلاء من رجالها عقيدة قومية في كل الامصار ، وهذا مما جاء به القرن التاسع عشر .

والى هـذا رمى اوغست كونت لما اراد ان يجعل عبادة عظماء الرجال بمنزلة عقيدة من عقائد البشر .

فالمعتقد الذي يذهب اليه الافرنجة في عصرنا هذا ذهب اليه العرب في قديم الدهر ولئن ملأ مذهب القوميات القرن التاسع عشر على ما قال الاستاذ « سورل » فان هذا المذهب قد ملأ تاريخ العرب من قبل ان يخلق القرن التاسع عشر .

لقد كان العرب يحرصون على قوميتهم وهل القومية الا اتصال رجال الامة بعضهم ببعض ، امواتهم باحيائهم ، وحاضرهم بغابرهم ولم لا يحرصون هذا الحرص ، وقد كانوا امة على معنى المصطلح الاجتماعي في عصرنا هذا ، ينتسبون الى اصل واحد ، وقد تقاربت اخلاقهم وطبائعهم ، وتشابهت هيآتهم وسحناتهم ، وتماثل تاريخهم وسياستهم ، وجمعتهم ارض واحدة ، واظلتهم سماء واحدة ، وهل الامة الا واحدة في جنسها وبيئتها ولغتها ودينها وحكومتها وارضها ، على اننا نرى في ايامنا أمماً من اجناس مختلفين ، يتكلمون بلغات مختلفة ، و يدخلون في اديان مختلفة ، اننا نرى شعوباً يجمعهم نظام قومي محكم وهم مبعثرون في نواحي العالم كله . كاليهود مثلاً اننا نرى شعوباً يتكلمون بلغة واحدة ولا ينتسبون الى امة واحدة ، كالانكليز واميركان الشمال ، و كسكان اسبانية وجمهوريات اميركة الجنوبية ، و كسكان البرتغال والبرازيل ، و كسكان فرانسة وبلجيكة الشرقية و كسكان ألمانيـة وسويسرة الشرقية ، اننا نرى امماً من اجناس مختلفين ، كالروس ، او كأهل الولايات المتحدة ، حيث نشاهد الابيض والاسود والاحمر . اننا نرى امماً فيها مذاهب شتى واديان متباينة [1]

عاملان من العوامل ينشئان الامة : اشتراك الامة في ميراث ملآن من الذكريات واجتماع كلمة هذه الامة على احياء ميراثها المشترك ، فالعرب في قديم الدهر قد تناولت ميراثاً خصيباً بذكرياته وتضافرت على احياء هذا الميراث فعاشت به زمناً رغداً يتغنى العربي

(١) دائرة المعارف الفرنسية : بحث القوميات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعروبيته . ويفخر بقوميته ، فهو صاحب الامر النافذ في دياره ، يتصرف في ملكه لا يشاركه رومي او تركي او فارسي او ديلمي في سلطانه ، العربية لسانه والعمائم تيجانه والمشرفية سيوفه والخطية رماحه ، نعم عاش العرب في صدر الاسلام بهذا الميراث الخصيب:

« يتبخترون على شباب الدهر في ظل السرير »

ولكن سرعان ما حالت احوال وحدثت حوادث وما هو الا كرد النفس واذا القيسية واليمانية ، واذا المتنبي الشغاب ، واذا الفرس والترك والديلم ، واذا التطاول لانتزاع الملك والسلطان ، واذا الفرقة بعد الالفة . واذا الطولونية والاخشيدية والحمدانية والفاطمية والسلجوقية ، ذهبت وحدة العرب او كادت ، وطلعت الشعوبية في البلاد فلا عز ولا منعة ولا حكمة السن ولا شدة عقول :

فلست بتارك ايوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول

وضب في الفلا ساع وذئب بهسا يعوي وليث وسط غيل

هذه هي نغمات الشعوبية بعد ان كان السلطان عربياً واللسان مضرياً . والوشي يمانياً ازدحم الاعاجم في البلاد واخذ عمال الخلافة العباسية ينفصلون عن بغداد وينفردون بامور الملك والسلطان ، قال غستاف لوبون :

« من جملة الاسباب في ضعف العرب اختلاف الامم الذين خضعوا لسلطانهم ، فقد ادى هذا الاختلاف الى تمازج شعوب لا يشبه بعضهم بعضاً والى تنازع هذه الشعوب ونشأ عن هذا كله تزاوج عناصر متباينة ، فافسد هذا التزاوج دم الفاتحين من العرب ، لقد كان تمازج الشعوب المتباينة في بلاد واحدة سبباً في انقراض هذه البلاد في كل عصر من العصور واثبت التاريخ ان لا سبيل الى ابقاء اجناس مختلفين في قبضة واحدة الا بامرين ، اما ان يشتد سلطان الفاتحين فلا تخرج الخوارج عليهم وأما ان لا يتزوج الغالب الى نساء المغلوب اي ان لا يندمج الغالب في المغلوب وهذا الامر الثاني لم يحذره العرب — »

نعم لم يحذر العرب هذه الامور كلها حتى اختلطوا بالاعاجم فتفرقت كلمة العرب وضعف تغني القوم بعروبيتهم .

فلننظر في هذه الحالة الاليمة هل حافظ المتنبي على عروبيته ، أفكان يضطرب في هذه العروبية اضطرابه في حنينه الى وطنه ، أفكان يتغنى بها مرة ، ويعقها مرة ، كما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان يحن حيناً الى كندة ، وحيناً يرى ان كل مكان ينبت العز طيب ، فلننظر هل اشتدت الفة المتنبي ليمانيته وعروبيته في جمع اطوار حياته .

لئن كان ابو الطيب قلقاً في تغنيه بتربته كريشة في مهب الريح ، لئن عطف حيناً على وطنه وعقه حيناً آخر ، فما كان قلقاً في تغنيه بعروبيته ، لم يعقها في يوم من ايامه ولا حدثته نفسه بالانسلاخ منها في حال من احواله ، ولئن لم تشتد الفة ابو الطيب لتربته فقد اشتدت الفته ليمانيته وعروبيته فهذه العروبية ممزوجة بنفسه موصولة بروحه من اول حياته الى آخرها .

المتنبي عريق في يمانيته ، شديد الحرص عليها وهل هو الا من جعفي وهمدان ، وكأني به وهو يقول في صباه على لسان بعض المتنوخيين :

ومجدي يدل بني خندف على ان كل كريم يماني

كأني به يريد نفسه بهذه اليمانية ولكن ابا الطيب لم يقنع في عقر يمانيته فقد طار في فضاء اوسع وحلق في سماء امد ، فانسلخ من اليمانية واندمج في العروبية يفاخر بكل شيء عربي يفاخر بلسان العرب وبتيجان العرب و بسيوف العرب . وسواء أكان ابو الطيب رقيق الحال ام كان واسع النعمة وسواء أكان في بلاد العرب ام كان في بلاد العجم انه حافظ على هذا الدم العربي وتعلق باهداب هذه القومية العربية فلم يرض بغيرها ديناً ولم يبغ عنها حولاً .

وما قولكم في شاعر يمر بشعب بوان بارض فارس وهو احد متنزهات الدنيا ، مشهور بحسنه وكثرة شجره وتدفق امواهه وكثرة انواع طيره .

اذا أشرف المحزون من رأس تلعة على شعب بوان استراح من الكرب

تغنى به الكتاب والشعراء فوصفوا فيه جداول ماء ارق من دموع العشاق وابرد من ثغور الاحباب ، ووصفوا ترقرق آذيها وتدفق تيارها وتكسر حبابها في خلال زهر ورياض ، ووصفوا ظلها الخضل الالى ، ماقولكم في شاعر يصف هذا المتنزه ويقول فيه :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كر من الحران
غدونا تنفض الاغصان فيها على اعرافها مثل الجمان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فسرت وقد حجبن الحرعني وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشير اليه منه باشربة وقفن بلا اوان
واملاه تصل بها حصاها صليل الحلي في ايدي الغواني

ما قولكم في شاعر يرى هذه العجائب والغرائب فلم تستول على قلبه ولم تأخذ من نفسه لانه تذكر وهو في شعب بوان انه عربي بين عجم فنأوه وقال :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وما هذا الفتى العربي الا ابو الطيب نفسه .

وحن الى منازل دمشق العربية وقال :

منازل لم يزل منها خيال يشيعني الى النوبنذجان
اذا غنى الحمام الورق فيها اجابته اغاني القيان
ومن بالشعب احوج من حمام اذا غنى وناح الى البيان

* * *

من هذا يتبين لكم مقدار احتفاظ المتنبيء بعروبيته وهو في آخر مدى حياته قد وقف على الخمسين اوجاوزها ولم يكتف بهذا المقدار فذهب في هذه النزعة القومية مذهباً ابعد ، فهو لا يريد ان يرى الا ملكاً عربياً ، ولا يعتقد ان العرب تنجح اذا كانت ملوكها من العجم لان العجم ينقضون العهود ولا يخفرون الذمم :

وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لاادب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل ارض وطئتها امم ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

وما هؤلاء العبيد الا عبيد الخلفاء من الاتراك الذين يأمرون على الناس . فالمتنبي يرى بين قومه وبين الاعاجم من تراخي المسافات ما لا يمكن تقريبه فهم متباينون في اللغة والذكريات فليس لهم ماض مشترك يؤلف بين قلوبهم . ليس لهم ذكريات واحدة . وادب واحد . واخلاق واحدة . وتربة واحدة فالتنافر مستحكم بينهم من كل النواحي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالمتنبيء عربي في سلطانه . وقد حملته عروبيته هذه في بعض الاحايين على ايلام الاعاجم فانه لما اقدم من الرملة يريد انطاكية مر بابن كيغلغ وهو رجل رومي كان يحافظ على الطريق في طرابلس . فسأله هذا الرومي ان يمدحه فترفع ابو الطيب عن مدحه . فاعتاقه ابن كيغلغ عن سفره ثلاثة ايام . فلما فارقه المتنبيء قال فيه قصيدته المشهورة : لهوى النفوس سريرة لا تعلم . من جملتها هذا البيت :

افعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الاعاجم اعجم

انظروا كيف كان ابو الطيب يتجرد للمراماة دون حياض العرب . فقد كان يباهر بكل شيء عربي . يباهر بلسان العرب وبتيجان العرب . وبسيوف العرب . وصحبته هذه العاطفة الشريفة حتى آخر نفس من انفاسه الذكية . لما مدح ابن العميد في ارض فارس وهنأه بالنيروز مدح فيه عروبة اللسان قبل كل شيء فقال :

عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية اعياده

ولما انصرف سيف الدولة من الظفر بحصن برزويه وعاد الى انطاكية . جلس في فازة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان . افتظنون ان ابا الطيب فضل تيجان الروم على عمائم العرب كلا ثم كلا . فقد قال لسيف الدولة :

وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة لابلج لا تيجان الا عمائمه
تقبل افواه الملوك بساطه ويكبر عنها كمه وبراجمه

نعم كان يفاخر بكل شيء عربي انظروا الى مفاخرته بسيوف العرب قال يمدح سيف الدولة ويذكر بناءه مرعش :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد فكيف اذا كانت نزارية عربا

* * *

وكأن هذه النزعة القومية كانت نزعة طائفة من شعراء تلك الايام على ان الحرب التي كانت تدور بين المسلمين والروم قد صبغت بصبغة دينية فكان ملك الروم اذا غزا بلاد المسلمين يجهز رجاله بالصليب الاحمر وقد كان شعراء العرب يومئذ يذهبون في شعرهم بعض مذاهب اسلامية مجاراة لطبيعة الحرب بين الروم والمسلمين قال ابو الطيب لسيف الدولة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خضعت لمنصلك المناصل عنوة واذل دينك سائر الاديان

ولكنهم مع هذا كله قد خرجوا من افق الدين الى افق اوسع واعم ، فلم يقتصر ابو الطيب في مدائحه في سيف الدولة على الاشارة الى نصرة الاسلام في حرب الروم ولكنه كان يرمي مرمى عربيًا ابعد أفقًا فمن قوله في سيف الدولة :

رفعت بك العرب العماد وصيرت قمم الملوك مواقد النيران

انساب نخرهم اليك وانما انساب اصلهم الى عدنان

فقال : رفعت بك العرب ولم يقل رفع بك الدين .

نعم كانت هذه اللهجة لهجة كثير من شعراء تلك الايام ، لما بني سيف الدولة قلعة الحدث وقد جمع ملك الروم اكابر مملكته وجهزهم بالصليب الاحمر هنأه كثير من الشعراء من جملتهم السري الذي قال في بناء الحدث :

رفعت بالحدث الحصن الذي خفضت منه الحوادث حتى ذل صاحبه

اعدته عدويا في مناسبه من بعد ما كان روميًا مناسبه

وكتب ابو فراس الى سيف الدولة وهو في الاسر ابياتاً من جملتها :

وانك لي الجبل المشمخر بل لقومك بل للعرب

ومن قول ابي نصر ابن نباتة في سيف الدولة :

حاشاك ان يدعيك العرب واحدها بامن ترى قدميه طينة العرب

وما اكرم هذه الصرخة التي صرخها ابو فراس على لسان نساء بني كلاب وذلك ان سيف الدولة اصطنع بني كلاب وادناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم الى ان بدت منهم هفوة احفظت سيف الدولة فاسرى اليهم واوقع بهم وملك حرمهم واموالهم ثم صفح عنهم وكرم وجمع الحرم ووكل بهن الخدم وحملهن وافضل عليهن واحسن اليهن فكتب اليه ابوفراس في تلك الحال قصيدة يقول فيها :

ينادين بين خلال البيوت لا يقطع الله اصل العرب !

وفي هذه الوقعة يقول ابو الطيب :

وان يك سيف دولة غير قيس فمنه جلود قيس والثياب

وتحت ربابه نبتوا واثوا وفي ايامه كثروا وطابوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتحت لوائه ضربوا الاعادي وذل لهم من العرب الصعاب

***

هكذا كان تغني الشعراء بالقومية حتى ان ابا تمام لما قال قصيدته الخالدة في مدح المعتصم وذكر فتح عمورية نزع في شعره نزعة اسلامية ولكنه لم يسعه في آخر القصيدة الا التغني بالعروبية فقال :

ان كان بين صروف الدهر من رحم موصولة او زمام غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نصرت بها وبين ايام بدر اقرب النسب
ابقت بني الاصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلّت اوجه العرب

فانتم تجدون في هذا كله ان كلمة العرب كانت تجري على السن الشعراء في ذاك العصر حتى في الحروب الدينية وفي هذا اشارة الى نزعة قومية لا يخفى امرها .

***

هذا ما عنّ لي من الكلام على عروبية المتنبيء ولِمَ لا يتغنى ابو الطيب بعروبيته ، وقد جاءته هذه العروبية من ناحية ابيه ومن ناحية امه فاختمرت في صدره فلم تفارقه في طور من اطوار حياته ، واذا كان شاعر مثل المتنبيء لم ينزع في شعره نزعة قومية فمن الذي يذهب هذا المذهب ، فاللسان العربي الذي لهج ابو الطيب بمحبته عامل من اقوى عوامل القومية ولئن وجدنا شعوباً يتكلمون بلغات واحدة ولا ينتسبون الى امة واحدة فلا يستنبط من هذا ان اللغة الواحدة لا تكون عنصراً من عناصر القومية فاللغة انما هي اشد الاواصر بين حاضر الامة وماضيها ، وبين احيائها وموتاها . فيها كل شيء يربطنا بالماضي ، فيها افراح العرب وآلامهم وفيها افكارهم وعواطفهم ، انها تضمنت ميراثنا الادبي الذي تعب آباؤنا واجدادنا في صقل جوانبه وتهذيب حواشيه ولا تكون الامة امة على مصطلح هذ العصر الا اذا تضافر رجالها على الاعتناء بهذا الميراث .

هذا ما رمى اليه ابو الطيب في الماضي وهذا ما نرمي اليه في الحاضر والآتي .

دمشق : في ١ شباط سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net